محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية

حضرة الشيخ سليم الدحداح

١

يلذُّ لكل خطيب كاتب ان يبحث في هذا الموضوع ؛ لانه ، اذا كان من خُدّامَة الدين او دِيناً ممارساً ، يجد في العائلة مهد الكنيسة الذي يتربّى فيه اعضاؤها ؛ فهي بنموّ العائلة تنمو ، ولها على العائلة حنوّ وبها عناية لا يذكر بجانبها حنوّ الامهات على بنيهنّ ولا عنايتهنّ بهم . ففي العائلة آمالها ومستقبلها .

وسواء كان الخطيب كاتباً اجتماعياً ، او سياسياً ، او شاعراً ، فانه يجد في العائلة نواة المجتمع الانساني وقوّته الاساسية التي يتوقف نموّ المجتمع الادبي ، وازدهاره الاجتماعي والاقتصادي ، على مبلغ تهذيبها ، ومقدار ازدهارها في الآداب والاقتصاديات . في العائلة الحجر الاساسي الاول لسياسة الخطيب ؛ فهو يعتقد — واعتقاده في محله — ان المبادي السياسية لا ترسخ في البلاد ، والحياة القومية لا يقوم لها كيان ، الّا اذا تربّى الناس منذ الصغر على مبادئ قومية راهنة ترتبط بوحدة وطنية . ويجد الشاعر في العائلة مجالاً واسعاً للعواطف والتخيلات : ففيها يجد الطفل الذين يسترق القلوب ، والفتاة العذراء التي تعلم السحر الحلال ، والوالد الذي تتمثل به السلطة في مهدها ، والام التي تتكوّن العواطف على صدرها ، والشيخ الذي يلقي بشيخوخته امثولة الاختبار والوقار والمهابة .

فالعائلة اذاً مجموعة الدين والادب والعواطف والآمال . فما اشهى التحدث عن العائلة اللبنانية الى شبّان لبنان اليوم ، ورجاله في الغد ، الذين سيكونون آباء عائلات البلاد !

ما اشهى التحدث عن العائلة اللبنانية اليكم يا شبان لبنان ، وآمال حياته الدينية والادبية والاجتماعية والسياسية.

انما يصعب عليّ ، وعلى غيري ، وعلى من كان اشدّ مهارة واختبارًا ، ان يوفي هذا الموضوع حقه. لان الحياة العائلية في لبنان — والذي اقصده بكلمة لبنان انما هو القسم الجبلي منه — لا ترتبط برابطة الوحدة الوطنية في حياتها الداخلية ، بل هي مرتبطة برابطة الدين . فالقومية عندنا للدين ، وبتعدّد الاديان والمذاهب تتعدّد العائلة في لبنان . وقد كانت الشعوب القديمة تقوم بدينها فكان تاريخ الفرد ، وتاريخ المجموع ، لا ينفصل عن تاريخ الدين . ثم اخذت تتقلّب الايام ، وتتطوّر مدنية الامم ، الى ان استقلّ تاريخ الفرد وتاريخ المجموع عن تاريخ المعتقد الديني ؛ واصبح للسياسة تاريخها ، وللاقتصاد والاجتماع والآداب تاريخها . نعم لم يخلُ الامر من بعض العلاقة الدينية ، انما هذه العلاقة لم تعد تؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية تأثيرًا جوهريًا . فهذا الانفصال سبقتنا اليه الامم الغربية من اوربية واميركية ، وهو ظاهر في تاريخها ، خصوصاً في الازمنة الحديثة.

اما شعوبنا الشرقية فقد كانت الى عهد قريب شعوب تقاليد لا تتحوّل عنها بالهين . ومن هذه التقاليد العادات التي كانت ولم تزل تحجب العائلة ، في الطبقة العالية من الشعوب الغير المسيحية ، عن الاختلاط بسائر الشعب . فهي مقيّدة بعوائد وتقاليد ليس من شأني سوى احترامها . انما لا شكّ بان الايام ستتكفل بتعديلها وتغييرها ، شأنها في كافة العوائد والاقطار والاقوام.

قلت ان الحجاب منع عائلات الطبقة العالية من ابناء تلك الطوائف عن الاختلاط . اما ابناء الشعب ، اي عامة سكان القرى والفلاحين ، فلا يختلفون ولا تختلف عائلاتهم بعوائدها عن عائلات المسيحيين.

لهذا فان كلامي سيتناول العائلة المسيحية في جبل لبنان (وفيه كثير مما ينطبق تمام الانطباق على العائلة السنية او الدرزية من عامة الشعب) فابيّن باسهاب كيف كانت قبل النصف الاول من القرن السابق ، واوجز فيما صارت اليه بعد ذلك.

قلت ان الدين في الشرق يمتزج مع القومية ، فالذي يدافع عن قوميته يدافع عن دينه ، وكذلك العكس . الرجل مفطور على الدين والدفاع عن الدين ، والدفاع عن القومية ، والدفاع عن الحياة ؛ وعلى حب الحياة فُطر ، وفطرته هذه اعرق من فطرته على حب الدين ، حتى لقد نجد من لا يدين ، او من يرفض أن يجاري عاطفة الدين الكامنة في قلبه ؛ انما لا نجد من لا يحب الحياة ولا يستميت في سبيل المحافظة عليها . ولا غرو فالحياة تفتدى بالحياة ! لذلك لمّا اشتدّ الاضطهاد على المسيحي في السهول الخصيبة ، ترك الارض التي تدرُّ لبناً وعسلاً ، وفرّ بتقاليده يحملها في اخلاقه وعاداته الى حيث لا يزاحمه الّا النسر والاسد ، الى مغاور الجبل وكهوفه ، الى صخور لبنان المتينة ، الى غاباته الكثيفة . فاعتصم بها يذود عما ورثه عن الآباء والجدود من تقاليد. دينية هي عقائد موحاة واوضاع كنسية تتعلّق بها ولا تنفصم عنها . وقد كان لها عنده ، وهو يرتع في مجبوحة الارض المخصبة من حلب الى دمشق ، منزلة عالية وقيمة غالية. فكيف به ، وقد خسر لاجل المحافظة عليها الحياة الغنية وبسطة العيش وسعة الرزق وسكينة الحياة بين الناس ! لقد صار لها في عينيه قيمة مضاعفة ، وما كان يفديه في مدى العمر بحياته ، اصبح يفديه كل ساعة بحياته . فصار عيشه استشهاداً دائماً ، وموتاً متواصلاً ، وصار لديه حلواً وشهياً لذيذاً.

وكأني باللبناني ، جدّنا الاول ، وقد هُوجم في ماله ودينه ، في عاداته وتقاليده ، في اعزّ ما لديه في الحياة . فترك العزيز من حطام الدنيا ، وتمسك بالاعز مما لا يفنى في هذه الفانية ، بل يبقى خالداً لكونه على صلة بالسماء . ونجا بنفسه الى كهوف لبنان واوديته ، فعقد مع صخور هذه الجبال الشمّاء عهداً على ان يكون في تقاليده الادبية والدينية ثابتاً راسخاً مثلها ، يردّد عليها كلمة لها صداها في عالم الحكمة والبطولة: « الارض المخصبة التي تركتها كانت تتقلب بين القحط والخصب ، فلا تثبت على حال ولا هي كانت مطابقة لثباتي في معتقدي وفي تقاليدي المقدسة . لذلك لم ارَ بدّاً من الاعتصام بكِ ، ايتها الصخور ، لاني اجد وجهاً للشبه بين رسوخك في هذه الاطواد الثابتة وبين الحقائق الابدية التي اتمسك بها واعيش لها ، واموت في سبيلها.»

وتعاقبت الايام وتوالت الاعوام ، فاذا باولئك اللاجئين الى صخور لبنان محافظةً على دينهم واستقلالهم ، وقد صاروا عائلات على روابيه وفي اوديته وعند سفوحه . ثم صاروا مزارع وقرى وقصبات . ثم صاروا مدناً . ثم صاروا امةً لها تاريخها ومجدها . فاضافوا الى تقاليدهم الماضية تقليداً جديداً وهو انهم ارتضوا بشظف العيش ، وعيشة المشقة ، وموت الحياة الدنيا ، لاجل سلامة تقاليدهم المسيحية . فكان كل واحد منهم بالتجائه الى لبنان يعيش على اطواده وفي بطون اوديته ، يكتفي بمناعته ويفاخر بوعورة مسالكه ، كالجندي اللاجئ الى حصن حصين يفرح به لانه حماه وحمى ولده من عوادي الايام .

فمن تكلفه تقاليده الدينية ما كلّفت اللبناني المسيحي ، لا يُستغرب منه شدة حرصه عليها وعنايته بها ، بل يُستغرب منه ان لا يكون كذلك !

* * *

كان الرجل رأس المرأة في العائلة ، ومن ثمّ رأس العائلة كلها ، وفقاً لما نصّت التعاليم الدينية . وكان الرجل يعتبر المرأة عضواً من اعضائه ويكرّمها كما يكرّم ذاته ، ولا يستطيع ان يفرقها عن ذاته ؛ لانه كان راسخاً عنده راهناً لديه انها منه ، وانها كلها له ، كما هو كله لها .

هذا كان شأن الرجل في العائلة القروية الوضيعة ، وفي العائلة الحاكمة ، وفي العائلة الوجيهة ، لا فرق في ذلك بين الشيخ والوجيه والفلاح . وتلك السلطة في العائلة كان لها صداها في المجتمع المدني ؛ فكانت سلطة الشيخ حاكم القرية او المقاطعة سلطة الوالد في عائلته ، فكان الجميع يهابونه ويحترمونه ويأتمرون بامره . وكانت هذه السلطة اكبر واعمّ في الكنيسة وخدمتها اذ كان الكاهن في الرعية الحكم المطلق اليه يرجع الشعب في الامور كلها ، وسلطته لا اعتراض عليها ولا مردّ لها . وكان اعتقاد القوم في صدق الكاهن عظيماً ، حتى ان غاية التأكيد كان القول بان « ذلك الخبر سمعته من فم كاهن . »

وكذلك كانت حالة المنطقة او المقاطعة تجاه الامير حاكم البلاد . فقد كانت

البلاد عائلة كبيرة تأتمر بامر الامير ، وتلتف حواليه ، وتقدس اشارته ، ولا تنتقض عليه من ذاتها مطلقاً .

وكان لالتفاف العائلة حول رأسها صورة في اجتماع العائلات حول حاكمها في القرية الواحدة . فانك ترى القرى القديمة مبنية رصفاً ، البيت لصق البيت ، وجميع البيوت ملتفة حول دار الشيخ او دار الحاكم او دار الوجيه .

ولم تكن العائلة ، بمجموعها ولا بافرادها ، ترى في وجوب الخضوع للحاكم او في اعتبار وجيه القرية الاعتبار العميق الحقيقي والانقياد له ، امراً غريباً ؛ لانها الفت تلك المعيشة في حضن العائلة منذ تنفتح عين الواحد منها على النور .

هذه ميزة من ميزات العائلة الجبلية في الماضي . وكان لها ميزات اخرى عديدة تشترك فيها عائلات سائر طبقات الامة . ومن تلك الميزات العمومية المشتركة قناعة كل عائلة ، وكل فرد منها ، بالمركز الاجتماعي الذي يشغله فلا تطمح نفسه الى غيره ، بل الى تحسينه . كانت هذه القناعة في الزواج ، وفي المعاملات ، وفي انواع الاكل واللباس الى حدّ انه لم يكن يخطر في بال القروي ، لو وجد كنزاً وصار غنياً ، ان يغير نوع معيشته في داخل بيته ، ولا ان يطمح بانظاره الى العائلات الكريمة العريقة في القدم ، ليصاهرها ، او يقتدي بها في انواع المعيشة العائلية والاجتماعية ، الّا في النادر الشاذّ الذي لا يقاس عليه .

وكان من عادات العائلات وتقاليدها الاجتماعية ، عريقة كانت ام قروية وضيعة ، ان الشاب لا يسعى بنفسه بالزواج ، ولا الفتاة لذاتها . بل كان قياد امور الشاب والفتاة بامر الزواج في يد الوالدين وكبار العائلة . فكانوا يعقدون مجلساً ويتشاورون في امر زواج ابنهم عند بلوغه السن المرافق .

واذا حدث ان احد الشبان «الاجانب» عن العائلة ، اي الذين لم تسبق العادة بمصاهرة عائلتهم ، طلب يد فتاة منها . فكان «الاختيارية» يستشيرون اباء شبّان العائلة فيما اذا كانوا يمتنعون عن خطب تلك الفتاة لاحد ابنائهم ، حتى لا تتغرّب الابنة . ومتى امتنعت العائلة زُوّجت الفتاة الى الخارج .

فكان الشاب يتكل في زواجه على عقل والديه وكبار عائلته المحافظين على التقاليد والعادات ، اكثر من اتكاله على عواطف الشباب التي قد يكون

مصدرها الحسن الخارجي والمعرفة السطحية . نعم انه كان في هـذه الطريقة للزواج نواقص . ولكن الزواج كان سعيداً ، لان رأس العائلة وكبارها كانوا يتحكمون في اختيارهم العقل والاختبار ، وينظرون الى امكان اتفاق اخلاق الشاب مع اخلاق الفتاة ، وغير ذلك من الامور التي يكونون خبروها ، ولا قبل للشاب والشابـة ان يعرفاها قبل ان يجوز بهما العمر الطويل . فكان اذا طلب شاب الى والده ان يخطب له فتاة «استروقها» ولم تحسن في عيني الوالد ، اجابه هذا: «طبّ الجرّة عاتمتها تطلع البنت متل امها» يشير بذلك الى عدم موافقة هذه الفتاة ، وانه عرف في امها اخلاقاً لا تتفق مع اخلاق العائلة.

لذلك كان الزواج مقدساً محترماً قلّ مـا يقع فيه اختلاف ، او يحدث خصام ودعاوى. وكانت تظلّ عائلات البنين عائشة مع عائلة الاب دون نزاع ، لانه لم يكن يخطر على بال الوالدين وكبار العـائلة ان يزوّجوا ابنة بشاب يختلفان تمام الاختلاف في العمر والعوائد والاخلاق والتربية ، ولا ان يزوّجوا ربيبة البيوت الكريمة بحديث النعمة.

فكانت ترف ابنة الشيخ الى ابن الشيخ ، وابنة الفلاح الى ابن الفلاح . وعندما تنتقل الابنة من بيت ابيها الى بيت زوجها لا تحسب في ذلك فرقاً بيناً بين معيشتها في البيتين ، فتظلّ الالفة ممتلكة على القلوب والعقول.

ومن ميزات عائلة الجيل ان الشاب ما كان يُترك بدون زواج بعد بلوغه سن العشرين ، وكذلك الفتاة. ولهذا لم تكن تفسد اخلاق الشاب ، ولا يمسّ في دينه وآدابه. وقلما كان يتعلق زواجه على المال ، فكان الشاب يتزوّج بين العشرين والخامسة والعشرين ممن هي تقاربه سنّاً . ويقيم معها في بيت واحد ، مع والديه واخوته واخواته ، الى ان يرزقه الله بنين وبنـات ، والوئام يظلّ سائداً على تلك العائلة اية سيادة.

نحن لا نتمنى ان يعود الماضي جميعه الينا ، ولا ان نعود الى جميع ما كان فيه. فاننا مسرورون برقيّنا العصري . وانمـا لسنا نرضى عن جميع ما في هذا العصر ، ولسنا ننسى ما كان يزين عائلتنا اللبنانية من المحاسن والمفـاخر التي فقدت كثيراً منها دون ان تستعيض عنها بالافضل. (للبحث صلة)